الحسناء

الجزء الثاني عشر — المجلد الاول

بيروت في ٢٠ ايار سنة ١٩١٠

لادي استير ستنهوب

ازفّ على صفحات الحسناء الى قارئاتها الحسان سيرة حسناء هي غريبة من غرائب الدهر وثابغة من نوابغه. لم يرو لنا التاريخ عن مثلها من بنات حواء.

وُلدت لادي ستنهوب في مدينة لندن في ١٢ اذار سنة ١٧٧٦ من ابوين عريقين في الشرف هما كارلوس إرل ستنهوب واستير كزنة إرل تشاتام وشقيقة وليم بت اشهر ساسة الانكليز في عصره فكان وليم بت خالها. لا عمها كما جاء في دائرة المعارف العربية

وكانت ذات جمال فتان وذكاء نادر المثال حتى قال عنها الملك جورج الثالث جد الملكة فكتوريا مرّة في حضرة خالها «ليس في مملكتي من يفوق لادي استير في السياسة. ويسرّني ان اقول انها فخر السيدات. واذا كان لك يا بت سبب للافتخار فذلك السبب ليس انك بلغت منصب رئيس الوزارة فان كثيرين قبلك بلغوه وسيبلغه كثيرون بعدك بل لانك خال هذه السيدة التي جمعت في شخصها كل ما هو عظيم في الرجال والنساء» ولما بلغت

الرابعة والعشرين من عمرها غادرت بيت ابيها وآثرت الاقامة في بيت خالها الذي كان معجباً بسمو مداركها ويحبها جداً حتى كان يكاشفها باسراره ويعتمد عليها في كثير من شؤونه واستقبال زائريه من الكبراء والوزراء الذين كانت تخلب البابهم بجمالها وذكائها وحديثها الساحر الا انها كانت شديدة الانتقاد على من كان منهم مداهناً مداسناً فصار لها منهم اعداء الداء يتحيّنون الفرص للايقاع بها واسقاطها من حالق سؤددها ومجدها . ولمّا اعتزل خالها السياسة ومهامها جعلها كاتبة سرّه وقيّمة على ادارة اعماله . فقامت بما وكل الى درايتها من المهام احسن قيام وبقيت في منصبها هذا الى وقت وفاته سنة ١٨٠٦ وكان قبل وفاته قد اوصى بها الحكومة الانكليزية فعينت لها اكراماً له مرتباً سنوياً قدره الف ومئتا ليرة انكليزية مدى حياتها . ولكن لم تكن هذه الكمية لتقوم بنفقات شريفة مثلها في مدينة لندن . فلم تلبث بعد وفاة خالها ان غادرتها الى بلاد وايلس ولكنها لم تجد الراحة التي كانت تنشدها فعقدت العزيمة على السياحة في ارض الله الواسعة . فطافت اولاً في اوربا وكانت حيثما حلّت ركابها تقابل بالتجلة والاحترام والاكرام لكرم محتدها وبعد شهرتها وجمالها الرائع فضلاً عن غناها . امور لا تجتمع في فتاة الاّ ويحوم حولها الخطّاب ويتهافت عليها الطلاّب . ولا بدع فالمورد العذب كثير الزحام . ولكنها خيبت آمال خاطبيها مع انهم كانوا كلهم من علية القوم وارباب الجاه والثروة . وبعد ان قضت لُباناتها من السياحة في اوربا وزارت امهات مدنها وطنت النفس على السياحة في الشرق وجعلت وجهتها سوريا . فركبت البحر من الاستانة العلية في سفينة انكليزية . ولما ان وصلت بها السفينة الى مكان مقابل رودس صدمت صخراً فانكسرت واخذت في الغرق . وكان فيها جزء كبير من حلاها وفاخر رياشها فغرق مع السفينة واما هي فقيّض لها الله من

انجاها وقلها الى البر . وما عتمت ان عادت الى انكلترا وجمعت كل ما كان باقياً لها من النفائس وباعت قسماً من املاكها الموروثة باثمان بخسة وبممت سوريا .

واتت اولاً اللاذقية واقامت فيها ردحاً من الزمان تمكنت في غضونه من دراسة اللغة العربية . وقد ذهب الناس مذاهب شتى في سبب كرهها بلادها ورغبتها في الابتعاد عنها . فمن قائل ان السبب الوحيد لذلك هو حزنها الشديد على الجزال مور الشاب الذي كانت تحبه (وربما كانت مخطوبة له) محبة شديدة وقد قتل في معركة كورونا في اسبانيا . فلم تعد تحلو لها الاقامة في ارض آبائها . وذهب آخرون الى انه ما حملها على هجران بلادها واللياذ بسواها الا طموح نفسها الى الشهرة والقيام بامور عظيمة تنشر صيتها في الخافقين . ورأت ان في الشرق مندوحة لتحقيق هذه الرغائب التي كانت تتمنى النفس بها . والسبب الحقيقي هو ما رووه هي عن نفسها وقد وجد مخطوطاً في مذكراتها قالت « انمى خلق الله شخص ولد نبيلاً ولكنه فقير لا تمكنه احواله من مجاراة من كانوا من رتبته في المجتمع الانساني . فانا بعد وفاة خالي لم اعد قادرة ان اخرج من منزلي في العربات الفاخرة تجرها الجياد المطهمة واستنكف من الركوب في عربة اعتيادية . وان سرت ماشية يتبعني احد خدمي بلباسه الجميل حسبوني كبعض السيدات اللواتي يفعلن ذلك حباً بالفخفخة والظهور . وان مشيت وحدي قالوا لا بد من سبب لمشيها وحدها . وان رافقت صديقاً تغامزوا عليَّ وقالوا انظروا انظروا فهذه الاسباب وامثالها جعلتني الازم البيت . فانحرفت صحتي وساءت حالي وصرت ارى الحياة عبئاً ثقيلاً عليَّ فعولت على ترك بلادي واهلي واللياذ ببلاد مشرق الشمس »

ثم جهزت قافلة كبيرة وغادرت اللاذقية لتجول في البلاد الجديدة التي عزمت ان تصرف غابر حياتها فيها فزارت القدس الشريف ودمشق وحمص وبعلبك وتدمر . ولما وصلت الى تدمر التفّ حولها بعض قبائل العرب وقد بهرهم جمالها وابهتها فجعلوها ملكة تدمر وخليفة لزنوبيا . وبقوا محافظين على ولائها امداً طويلاً . وبعد ان تجوّلت في البلدان الشرقية نحواً من ثلاث سنين واذهلت من رأوها بغناها وجمالها واعمالها ثاقت نفسها الى الراحة من الاسفار فقصدت صيداء وراقها موقع في جوارها يسمى عبرا فابتاعته وبنت عليه داراً متعددة المساكن . وانشأت حولها حديقة غناء غرست فيها اشجار الفاكهة على اختلاف انواعها . وزينتها بانواع الرياحين التي كانت تعطر بارجها الارجاء . وطوّقت الدار والحديقة بسور منيع فصار منزلها قلعة حصينة وملجأ لكل مستجير وعاشت في هذا المكان عدة سنين في ابهة شرقية وكانت ملابسها كملابس امراء الشرق فكانت تلبس على راسها عمامة بدلاً من القبعة وفروة او عباءة فوق قساطينها الحريرية التي كانت في الغالب من نسج الفرس . ولكنها لم تكن تلبس شيئاً من الحلي . وكانت تقول ان قيمة المرأة لا تتوقف على نوع لباسها ونفاسة حلاها بل على ما هي عليه من شرف المبدا ونبالة المقصد وتقوى الله تعالى

ولما كان من مبدإ استير ان لذة العيش تتم بالتنقل غادرت هذه الدار واتخذت لها مسكناً في مكان يعرف بضهرجون على بعد ثمانية اميال من صيدا ابتاعته من تاجر غني من دمشق ووسعته كثيراً بان زادت عليه نحواً من خمس وثلاثين غرفة . وانشأت بستاناً جميلاً على نسق البستان المذكور انفاً واحاطت البستان والدار بسور بل باسوار الواحد ضمن الاخر كالاسوار التي كان يشيدها ملوك ماديّ قديماً

وكان لديها حاشية كبيرة من كتّاب وطهاة ومكارين وبوابين ورعاة وعبيد واماء وكلهم شرقيون اذ كانت تكره الخدم الاوروبيين لانهم لا يعلمون للطاعة معنى وهي كانت ترغب في ان تطاع اوامرها بلا جدال

وكان في اسطبلها فرسان تعتني بهما كل العناية لم تسمح لاحد ان يركبهما لانها كانت تعتقد ان مجيء المسيح قريب وانه سيركب احدهما وتركب هي الاخرى وترافقه الى القدس كملكة . وكان عندها ثلاثة جياد أخرى من نوع الرهوان ولكنها لما درت ان الخدم يركبون هذه الرهاوين ويرهقونها تعباً امرت احد حشمها الذي كانت تثق بامانته ان يعدمها رمياً بالرصاص بعد ان يمس في اذن كل منها قبل قتله هذه الكلمات (قد اكملت عملك على الارض وصاحبتك تخاف ان تقع بين ايدي الناس قساة القلب يسيئون استعمالك فلذلك هي تعتقك من الان) ثم طردت من بيتها اولئك الخونة . وقد كانت صارمة جداً على كل خدمها الخائنين فكانت تجلد وتحبس كل من كان منهم غير امين في واجباته ونظراً لتصرفاتها الغريبة قد حكم عليها بعض الناس بانها مجنونة ولكنها لم تكن كذلك بل كانت تفعل كل ما تفعله عن تعقل كما شهد لها غير واحد من عظماء الاوروبيين الذين زاروها في عزلتها

وكيفما كانت اخلاق هذه السيدة ومهما تقوّل الناس في امرها فانها كانت حائزة كل الاكرام والاعتبار من سلطان البلاد وولاتها واعيانها وذات نفوذ عظيم وتداخل في الشؤون السياسية . ومما يدلنا على اهمية مركزها السياسي ان ابراهيم باشا المصري حين عزم على مهاجمة سوريا طلب اليها ان تبقى على الحياد . ولكنها ناوأته اخيراً وهاجت الدروز عليه وكان لها يد في طرده من سوريا : وكانت اذا خرجت من منزلها قاصدة احد الاماكن

يصحبها عدد غفير من رجالها واتباعها . وحيثما وصلت كان الناس يلاقونها بمجامر البخور والند ويقدمون لها الهدايا . وما اكسبها هذه المنزلة في عيون القوم الأكرمها الحاتمي وبذلها لاغاثة المحتاجين واللاجئين اليها . وكانت احياناً كثيرة ترسل الى الجهات المختلفة جمالاً محملة ثياباً وزاداً لتوزع على المعوزين بل كانت احياناً تبني لهم بيوتاً لايوائهم . وكان يتوهم من يراها سائرة في موكبها انها تعيش كملكة . والحقيقة انها كانت تقتصر على البسيط من الطعام والاثاث ولكنها تكرم ضيوفها اذا رضيت عنهم اكراماً يليق بمقامهم وكرمها المعروف ولم تكن تسمح لابناء بلادها الانكليز ان يقابلوها مع انها كانت تكاتب ملكتهم ووزراء مملكتهم . مثل اللورد بالمرستون والدوق ولنكتون الشهير والدوق مكسيمليان وكثيرين غيرهم وكان يتعجب قارئو كتاباتها بسمو عباراتها ورقة افكارها ولا سيما اذا خاضت في المواضيع السياسية

ومن المشاهير الاوروبيين الذين زاروها لامرتين الشاعر الافرنسي الشهير وقبل ان زارها بعث اليها بالكتاب الاتي

سيدتي : من سائح مثلك في الشرق وغريب في هذه الديار جاء ليتأمل في مناظر الطبيعة وآثارها واعمال الله فيها . وقد وصل الى سوريا منذ مدة مع عائلته وهو يحسب يوماً يتمكن فيه من مقابلة امرأة هي نفسها من عجائب الشرق الذي جاءه زائراً من اجمل ايام سياحته والذها . فاذا شئت ان تقابليني فاذكري لي اليوم الملائم لذلك وقولي لي اينبغي ان اتوجه وحدي او يمكنني ان اسير اليك بجماعة من خلاني يرغبون مثلي كلّ الرغبة في التشرف بمقابلتك . وارجو ياسيدتي ان لايكون هذا الطلب سبباً لتكلفك ما يزعجك في عزلتك فاني اعرف من نفسي قيمة الحرية ومحاسن الانفراد ولذلك

لا يسوغني البتة رفضك مقابلتي بل اتلقى ذلك بالتوقير والاحترام اه .

فوقع لديها كتاب لامرتين احسن وقع واذنت له ان يزورها . فتوجه الى دارها وبث ينظر ريثما يصدر امرها له بالمقابلة . ولما حان الوقت اتاه غلام اسود وادخله غرفتها . قال لامرتين وكان الظلام قد سدل عليها ذيوله فلم اتمكن من ان اتبين هيئتها اللطيفة البهية الجليلة وذلك الوجه الصبوح فنهضت وهي في زي الشرقيين ودنت مني ومدت الي يدها مسلمة علي فامعنت فيها النظر فاذا فيها من لطف المعاني ما لا تستطيع السنون محوه . نعم ان نضارة الوجه واللون والرونق تمضي مع الفتوة . الا انه متى كان الجمال في القد وهيئة الوجه والعظمة والجلال فانه لا يزول ولو طرأت عليه الطوارئ باختلاف ازمان الحياة . وبعد السلام قالت لي قد اتيت من مكان بعيد وكلفت نفسك مشاق السفر لترى ناسكة فاهلاً بك . انا قلما يزورني الاجانب ولكن مكتوبك اعجبني فوددت ان اعرف انساناً يحب الله والطبيعة) ودار بينهما حديث طويل عريض عن التنجيم الذي كانت تعتقد انها اتقنته . قال لامرتين وقد تبين لي من حديثها انها اشبه بالساحرات القديمات المشهورات او باحدى معبودات الاقدمين وان عقائدها الدينية وان كانت غامضة فهي مقتطفة مجذق من ادبان مختلفة . وكنت سمعت البعض يعزون اليها الجنون اما انا فلم ار له اثرا لا في الفاظها اللطيفة ولا في حديثها الذي وجدته سامي المعاني متسلسلا مرتبطاً متناسقاً والجنون تظهر امارته واضحة في الحديث والعينين .

وبقيت ساكنة في دارها بالقرب من جون فوق صيداء الى ان ادركتها الوفاة في شهر حزيران سنة ١٨٣٩ في الثالثة والستين من عمرها . فقضت نحبها واسى لان اهلها لما بلغهم ما كان من اسرافها وبذخها قطعوا عنها امداداتهم المالية فتراكمت عليها الديون فهجرها كثيرون ممن كانوا في خدمتها لانهم

قطعوا املهم من الربح منها . ولكنها صبرت في الضيق ولم تأس على ما فات

ولما ماتت لم يكن حول فراشها لا قريب ولا نسيب ولا من يبكيها واما خدمها فنهبوا البيت حالما اسلمت الروح وفروا هاربين . ولما بلغ نبأ وفاتها قنصل دولة انكلترا في بيروت توجه الى جون وبصحبته المرحوم الدكتور طمسن الاميركاني . فصلّى الدكتور على جثمانها ثم اودعاه رمساً في بستانها الشهير

هذا ما اردت ذكره في هذه المقالة عن استير ستنهوب التي ابتدأت حياتها في الرخاء واليسر وانتهت في الشدائد والعسر . وقد كانت في حالتي الشدة والرخاء ذات اداب سامية وصفات غراء يستحق من حازها ان ينعت بالنبل والشرف ولو لم يولد في بيوت الشرف . فلم يقدر ان يتصباها امير ولا وزير . ولا استطاع شعراء الملوك ولا ملوك الشعر ان يتملقوها بشيء من مدائحهم . ولا سمحت لمصور وهي في ابان جمالها ونضارة صباها ان يصوّرها . ونالت مكانة سامية في اعين الاسرة الانكليزية المالكة حسدتها عليها الاتراب وتودّ اليها العظماء في كل اوربا . ولكن هو الدهر لا يبقى لحيّ ابداً . فلم يسمع برفعة مثل رفعتها تلاها سقوط مثل سقوطها . الّا انها صبرت صبر الكرام وسلّمت الى من بيده زمام الكون وتقلبات الزمان

بيروت داود قربان